

بسم الله الرحمن الرحيم

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

مقدمة لدراسة السيرة النبوية

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن أحبه واتبع هديه،
وبعد:-

في هذه المقدمة أحاول عرض ثلاثة أفكار أمهد بهنّ لذه الدراسة عن سيرة الرسول ﷺ، الأولى: كيف تطورت قراءة السيرة النبوية عندي من المتعة النفسية إلى الجدل مع الكافرين والسّماعين لهم أسرد سياقاً أعرف أن غير مشى فيه مثلما مشيت، لعلي بهذا أفتح مجالاً لذي قوة يشد في نصرة حق أو دفع باطل؛ والثانية: الإطار النظري لفهم تفسيرات الكافرين والسّماعين لهم، والثالثة: سياق التأليف في السيرة النبوية

أولاً: السيرة النبوية من المتعة النفسية إلى الجدل مع الكافرين والسّماعين لهم:

منذ وعيت وأنا في ظلال السيرة النبوية، فقد أتيت على البداية والنهاية وأنا لم أتجاوز السادسة عشر، وإلى اليوم لم أكد أرحل عن ظلال السيرة النبوية. كنت أقرأ حباً وشوقاً للحبيب ﷺ وأصحابه ﷺ. كانت السيرة النبوية بمثابة الرياض العطرة التي أستريح فيها، ثم تآقت نفسي لتصور شخص الحبيب ﷺ، وحياة الحبيب ﷺ وهو بين أصحابه ﷺ، وكم قضيت من الساعات، وأنا شاب صغير، أتخيل الحبيب ﷺ وهو في مسجده قائم يصلي وخلفه الصحابة ﷺ، كأنهم بنيان مرصوص، وهو ﷺ جالس بعد الصلاة وجهه الشريف يصفح وجوههم الكريمة.. يسبح ويسبحون، والروح الأمين والملائكة حوّلهم، والشيطان بعيد يلطم خديه ويضع التراب على رأسه، والدنيا ترقبهم وتنصت لهم؛ وهو ﷺ في غزواته وهو يسير بين أصحابه كأحدهم لا يتميز عنهم بشيء وقد أوتي الكمال والجمال، وهو بين الصفوف وعيناه ترمقان العدو، وحسان ينادي منتشياً: "جبريل تحت لوائنا ومحمد"؛ وهو في طرقات المدينة تقبل

الأرضُ قدميه، ويفرح بمروره الشجر والحجر، يعطر المكان والزمان، فيظل حديثهم: مرّ من هنا الحبيب ﷺ؛ وهو ﷺ في بيته بين زوجاته وأبنائهن والبيت مزدحم بالنساء وأطفالهن ومن تأتين عليهن زائرات، وهو قائماً يصلي في جوف الليل، وهو راعع يعظم ربه.. وهو ساجد يتضرع ويناجي. وأبو بكر الصديق وهو نائر يوم الردة يقف وحده صلباً في وجه الجميع ينادي "أينقص الدين وأنا حي". وعمر.. ومم وددت أني أصافح عمر.. أني أعانق عمر، أني أتلو القرآن على عثمان بن عفان في مسجد النبي ﷺ. وإني أحب عثمان وعبد الرحمن بن عوف وأبي بن كعب وأخدم القرآن بما استطعت وأرجو أن أحشر في زمرة القرآن وأهله. ومم وددت أني أجالس علياً وأرافقه.. كم وددت أني مع خالد وهو يسير ليلاً ويشجع الكرام "عند الصباح يحمد القوم السرى"، "المعونة على قدر النية والأجر على قدر الاحتساب، فاروا الله من أنفسكم خيراً"، وهو يجثم جثوم الثعالب، وهو يثب وثبة الأسود. كانت هذه أحلام الصبا.. إي والله.

وبعد سنوات عثرت على أسطوانة مدججة (CD) من شركة "حرف" في السيرة النبوية وكان بها بداية تجسيد حياة الصحابة وعرض لجغرافيا السيرة (مكة: الكعبة ومسكن القبائل ومعالم السيرة في مكة، والهجرة، والمدينة بتفاصيلها، وغزوات الرسول ﷺ فكانت إطلاله جديدة على حياة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ).

ثم تطور الأمر بعد ذلك لمحاولة كتابة متواضعة، نشرت بعنوان: "مفاهيم أساسية لدراسة السيرة النبوية" وكانت كشأن كل عمل الشباب لا يحمل أكثر من العاطفة الصادقة والله نسأل توفيقاً وأجرًا، إنه كريم منان.

ثم، بلا قصدٍ، نزلت بساحة النصارى في عام 1426هـ / 2005م، وهم يتناولون على الدين ومقام سيد المرسلين ﷺ، وبدأت مرحلة جديدة من النظر للسيرة النبوية، كان النصارى يطلقون أسئلة ويقدمون رؤية شاملة للبعثة المحمدية. وبدأت أسئلة النصارى تتوارد على خاطري: التشكيك في البعثة المحمدية (نزول الوحي من السماء)، وفي شخص الرسول ﷺ: نبي هو ﷺ. أم عبقرى اجتهد؟ أم مصلح تألم لحال قومه وقد غشيه الجهل والظلم فحلوا في ذيل الأمم؟ أم كانت بيئة قريش الطامحة

للتحول، بفعل الانتعاش التجاري (الإيلاف وحركة البضائع)، من القبيلة للدولة، فجاء الرسول ﷺ يكمل ما بدأه قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم؟ أم كانت بيئة العرب المتأزمة تبحث عن مخرج ووجدته في شخص الرسول ﷺ؟ وأسئلة حول القرآن الكريم: ثبوتية الوحي، صحة النص وسلامته من الأخطاء، والناسخ والمنسوخ؟

واشتبكت مع النصارى بضع سنين (من 2005م إلى 2010) وكتبت كتابًا طبع ثلاث مرات، حاولت من خلاله المشاركة في الرد على الشبهات التي يثيرونها، بعنوان "الكذاب اللئيم زكريا بطرس: دراسة بحثية تحليلية مختصرة"، وعشرات من المقالات نشرت على "صيد الفوائد" و"طريق الإسلام" والمنتديات الإسلامية، كنت أرمي عن الحبيب ﷺ وعن حمى الدين.

وبعد أن كثر المدافعون عن الإسلام ضد الحملة التنصيرية البذيئة الشرسة، انصرفت لدراسة العلوم السياسية في الأكاديميات المختصة حتى حصلت على الدكتوراة في العلاقات الدولية، وفي السياسة وجدت ذات الأسئلة من العلمانية الوضعية **Positivism**. تُشكك في الوحي والغيب عمومًا. وتشكك في قابلية أي نموذج روحاني لأن يسود، وتدعي أنها هي "نهاية التاريخ" .. أو أن البشرية كانت تسير في سياق تصاعدي وأن ما وصل إليه الغربيون من تدبير لشئون الحياة هو نهاية التقدم وليس بعد ذلك شيء!!

وبين النصارى والعلمانيين رأيت أعدادًا غفيرة من المنتسبين للإسلام يقرؤون البعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة) من منظور علماني بحت. جموع من المنتسبين للإسلام آمنوا بالمذاهب العلمانية (الوضعية) وجاءوا للشريعة يحاول كل واحدٍ منهم أن يصب الشريعة في قالبه المذهبي، فمنهم من قال عبقرى.. والتاريخ يصنعه العباقرة، وإن التاريخ صراع بين الحق والباطل، صراع بين من آمن بالله وما أنزل على رسله، عليهم الصلاة والسلام، وبين من أغوتهم الشياطين؛ ومنهم من يقول: إعداد أرضي من

خديجة⁽¹⁾، أو من ورقة بن نوفل⁽²⁾، أو من تلقاء نفسه حيث جد واجتهد ورحل إلى الشام واليمن وتعلم من أقرانه⁽³⁾ كل واحد جاء من خلال المذهب العلماني الوضعي الذي اعتنقه. وقدمت مناقشة لعباس العقاد، وما في نيتي سوى أن تكون مناقشة عباس العقاد حالة دراسة لغيره ممن تعدوا على البعثة المحمدية بتفسيرات علمانية أرضية تأثروا فيها بغير المسلمين⁽⁴⁾.

تغير المشهد، من قراءة لأجل المتعة النفسية، إلى رد شبهات جزئية يتحدث بها النصارى، ثم إلى الاشتباك مع المتأثرين بخطاب الكافرين، كخليل عبد الكريم، وسيد القمني، وعباس العقاد، وعمرو خالد،⁽⁵⁾ ثم تطور المشهد، بعد عقود قضيتها في ظلال السيرة النبوية، إلى البحث عن الفكرة الرئيسية التي ينطلق منها الكافرون والسماعون لهم.. المتأثرون بخطابهم حتى استقر عندي، بعد طول نظر فيما

(1) في كتابه "فترة التكوين في حياة الصادق الأمين" لم يكذب يخرج خليل عبد الكريم عن فكرة واحدة وهي: ادعاء أن خديجة بنت خويلد هي التي خططت للبعثة المحمدية، فهي - حسب زعمه الكاذب - التي درست النصرانية، وناقشت القساوسة، ثم علّمت النبي الأمي ﷺ، وأنها هي التي خططت كلياً للبعثة، وأدارت المشهد إلى وفاتها، ووضعت الأسس للدعوة بعد وفاتها!! مع أنه يعترف بعدم وجود أي دليل على هذا في السيرة، يقول: حذفه المسلمون وهم يكتبون السيرة!!، ومع أنه - في كتاب آخر - يعترف بأن مجتمع مكة والمدينة كان مجتمعاً ذكورياً، لا يعرف المرأة إلا "بضعاً". ولا أدري كيف حذفه المسلمون وعلمه هو!! سبحانك هذا بهتان عظيم. إنظر إن شئت - خليل عبد الكريم، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين، (القاهرة، دار مصر المحروسة، 2004).

(2) كان هذا محور كتاب "قس ونبي" لأبي موسى الحريري، (لبنان، دار لأجل المعرفة، 2005). و جوزيف قزّي (1937م - 2022م)، قس لبناني ماروني معاصر، قدّم رؤية خاصة عن الإسلام في عديد من الكتب باسمين مستعارين اشتهر بهما، وهما "أبو موسى الحريري" و "أنور ياسين"، وغلب عليه الأسماء المستعارة لانتشار كتبه بهما. صدرت كتاباته في سلسلة من عشرين إصداراً باسم "الحقيقة الصعبة".

(3) كان هذا هو المحور الرئيس لعمرو خالد في حلقاته "على خطى الحبيب"، وقد ناقشت هذا مفصلاً في فصل "عمرو خالد وإنكار الوحي" في كتابي "عمرو خالد: دراسة بحثية تحليلية نقدية مختصرة" انظر:

<http://www.saaaid.net/book/open.php?cat=88&book=9265>

(4) من أشهر الأمثلة على ذلك، هذا السؤال الذي طرحه القس "جوزيف قزّي": "هل كان محمد نبياً مرسلًا من لدن الله ليؤسس دينًا؟ أم أنه جاء ليصلح مجتمعًا فاسدًا، فنجح، وأكسبه نجاحه نبوة!!؟" ينظر: جوزيف قزّي (أبو موسى الحريري)، نبي الرحمة: بحث في مجتمع مكة، (لبنان، دار من أجل المعرفة، 1990م)، ص 7.

(5) ولا أسوي بين هؤلاء، فسيد القمني يعلن كفره، و خليل عبد الكريم يصرح بأن الوحي مصدره خديجة، رضي الله عنها، ويتناول على الصحابة، والعقاد مسلم دافع عن الإسلام أحياناً، وعمرو خالد من أهل السنة ويظهر كداعية،

كتب هؤلاء، أنهم ينطلقون من "حتمية تأثير البيئة والعوامل الوراثية"، وهي الفكرة التي نبتت بدايةً من رأس ابن خلدون ودونها في مقدمته للتاريخ، وتلقفها منه الغرب (الوضعية الغربية) وأسس عليها علم الاجتماع الغربي، ثم المتأثرين بالمنهج الغربية أو باين خلدون مباشرة.

وكتبت عددًا من المقالات والأبحاث، وألقيت بعض المحاضرات أناقش هذه الفكرة الرئيسية وبعض تطبيقاتها، وهأنذا أحاول، بحول الله وقوته، عرض شبهات المخالفين من خلال المدخل الذي اجتمعوا فيه (تأثير البيئة والعوامل الوراثية)، وأرد عليهم من خلال مقولة يسرها الله لي بعد طول تأمل في السيرة النبوية، وهي "فجائية الدعوة" ونشرت الفكرة في مقالٍ بعنوان: "فجائية الدعوة أكثر ما يؤرق المخالفين".

هي عزيمة أَرُدُّ بها ما أراه باطلاً عن حياض الدين ومقام سيد المرسلين ﷺ، وصحابته رضي الله عنهم. أحاول المساهمة في إرشاد السائرين إلى رب العالمين، طلبًا للقرب من الله، والله أسأل رشدًا، وعزيمة على الرشد، وعاونًا، وبركةً. إنه كريم منان.

ثانيًا: الإطار النظري لفهم تفسيرات الكافرين والسامعين لهم.

ذكر الله العليم الخبير في كتابه أن بعضًا من المسلمين يتأثرون بخطاب الكافرين، أو يعاونون الكافرين على كفرهم وسعيهم في صدِّ الناس عن دين الله، يقول الله تعالى: (وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ) (6) أي: "ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم أو تمامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم" (7)، فثمة تأثر بخطاب المخالفين من المستشرقين و"المبشرين"، وثمة تعاون من بعض المنتسبين للإسلام، بقصدٍ أو بدون قصد، مع الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله.

ومن قبل قَدَمِ المستشرقين والمبشرون شبهاتهم على أنها قرأءتهم-هم- للشريعة الإسلامية، وذلك حين

(6) سورة التوبة: من الآية 47.

(7) ينظر: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، (بيروت، دار إحياء التراث

العربي، 1418هـ)، ج3، ص83.

كانوا يخاطبون من خَلْفهم من قومهم، أو-بالأحرى- حين كان مَن خلفهم لا يعرفون شيئًا عن الإسلام إلا من خلالهم. والآن بعد أن أصبح التواصل ممكنًا للكُل مع الكُل مباشرةً من خلال وسائل التكنولوجيا الحديثة، تتلمذ نفر من المسلمين على أيدي المستشرقين، وتعلم نفر من كتاباتهم، فتأثروا بخطابهم وقالوا ببعض قولهم، وكانت السمة العامة أن أقبل هؤلاء المتأثرين بخطاب الكافرين على إعادة قراءة الشريعة الإسلامية من جديد من خلال مذاهبهم العلمانية التي آمنوا بها، فكانت النتيجة ظهور تفسيرات للبعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة) من خلال مفاهيم علمانية.

وحيث أن لكل معرفة سلطة تدعمها.. تحملها إلى عقول الناس وتمكنها من تشكيل سلوكهم، فإنه لا ينبغي علينا، ونحن نرصد هذه الظاهرة ونحاول فهمها والتنبؤ بسلوكها، أن نرصد الأفكار وحركتها (من وإلى) دون أن نرصد القوى الداعمة لها وبيان أن الفكر لا يتمكن إلا بقوى داعمة.. بالمعنى الواسع للقوى. ولذا فإن الإطار النظري الأمثل لفهم هذه الظواهر يتكون من مقولتين: الأولى: حتمية تأثير البيئة، والثانية: الدعم من قبل الأدوات العلمانية المحلية والخارجية.

تعدُّ مقولة "حتمية البيئة"، بمعنى أن البعثة المحمدية إفرازٌ للبيئة التي عاش فيها الرسول ﷺ أو أن ما جاء به النبي ﷺ كان امتدادًا لما كان سائدًا في بيئته الصغيرة (قريش / مكة المكرمة) خصوصًا والبيئة العربية عمومًا، الفكرة الرئيسية التي يحاول من خلالها الكافرون و"السمّاعون لهم" نفي رسالة النبي، صلى الله عليه وسلم. ويتفرع عن هذه الفكرة فكرةً أخرى وهي "التطور". فالمتحدثون بحتمية البيئة يقولون بضرورة التطور المعرفي تبعًا لتغير البيئة (الزمان والمكان)⁽⁸⁾.

(8) تعد فكرة التطور فكرة شيطانية بالأساس. وأمانة ذلك أنها ظهرت في رأس عدد من الناس في أزمنة وأمكنته مختلفة. وقد تحدث بها ابن خلدون في مقدمته، والقزويني في "عجائب المخلوقات"، وابن طفيل في "حي بن يقظان"، وابن مسكويه في "تهذيب الأخلاق"، وإخوان الصفا في رسائلهم، وأرسطو في نظريته عن ترتيب المخلوقات في العالم، ثم انتشرت منسوبة لأحد المثقفين الغربيين (دارون) بسبب غلبة الثقافة الغربية. ويأتي في هذه الدراسة عن السيرة النبوية حديث عن أثر الشيطان المباشر في المستوى النظري والمستوى العملي، ينظر: "من وحي الشيطان" لمحمد جلال القصاص، موقع صيد الفوائد:

وربما كان السبب في انتشار هاتين المقولتين (حتمية البيئة، والتطور) سيطرة مفاهيم علم الاجتماع الحديث على عامة الحقول المعرفية المتعلقة بالدراسات الإنسانية. وذلك أن علم الاجتماع الحديث ينطلق من أن للواقع (البيئة) قوانين حتمية يفرضها على عموم الناس⁽⁹⁾. ولمزيد من البيان أضرب مثلاً بما ورد في كتابات خليل عبد الكريم، يقول عن شخص النبي ﷺ: "ولذا فإنه لا بد وبطريق الحتم واللزوم أن يتأثر بالنسق الاجتماعي والنظام الحضاري السائدين في محيطه"⁽¹⁰⁾، ويقول عن الأنبياء وعظماء الناس الذين يُحدثون أثرًا في الواقع المعاش: "فإنهم لا بد يتأثرون بالمجموع أو الجماعة؛ فالعلاقة بين الفرد مهما سما قدره والمجتمع والجماعة علاقة تبادلية وينتج بين الطرفين تكامل عضوي ديناميكي، هذه حقيقة علمية قال بها علماء الاجتماع"⁽¹¹⁾. وكرر ذات الكلام في مقدمة كتابه "مجتمع يثرب" حيث يقول: "وعلم الاجتماع يؤكد لنا أن تغيير أحوال أي مجتمع لا يتم بتأثير النصوص مهما كان شأوها من البلاغة والإعجاز"⁽¹²⁾ وهو هنا يدعي أن الأثر الذي ظهر على يد الرسول ﷺ وصحابته، رضوان الله عليهم، لم يكن بتأثير القرآن الكريم والسنة النبوية وإنما جاء بمؤثرات البيئة! وفي مكانٍ آخر يدعي أن مجتمع الصحابة لم يتغير كثيرًا عن مجتمع الجاهلية، وأن "العلاقة بين الرجل والمرأة ظلّت كما كانت في الجاهلية (علاقة ذكر وأنثى)، وأنها كانت المحور الذي يدور حوله ذلك المجتمع وأن محمدًا⁽¹³⁾ بذي

(9) مصدر الفكرة من عند ابن خلدون، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، ينظر: "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، لعبد الرحمن بن خلدون، (بيروت، دار الفكر العربي، 1408هـ/1988م)، ج1، ص13.

(10) ينظر: "الجدور التاريخية للشريعة الإسلامية"، لخليل عبد الكريم، (القاهرة، سينا للنشر، 1990)، ص107.

(11) ينظر: "الجدور التاريخية للشريعة الإسلامية"، لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص107.

(12) ينظر: "مجتمع يثرب: العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين الحمدي والخلفي" لخليل عبد الكريم، (القاهرة: سينا للنشر، 1997م)، ص7. وعلم الاجتماع لم يجمع على شيء، وإنما هو - وأمثاله - ينتقون ما يخلو لهم، وغالبًا ما يعنون علم الاجتماع الغربي المادي الوضعي، كما سيأتي حال مناقشة هذه الأفكار؛ وإن كل تغيير يبدأ بتغيير الأفكار. "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (الرعد: 11)

(13) مررت على ما كتب. لم أكد اترك منه شيئًا. ولم أره يصلي على الرسول ﷺ إلا نادرًا، ويصف النبي ﷺ بأوصاف فيها كثير من السخرية.

جهودًا تفوق طاقة البشر ليتسامى ذلك المجتمع بها ولكن لرسوخ ذلك النسق الاجتماعي وتجزئه وضربه حتى الأعماق فيه هذا من جانب ولقصر المدة التي قضاها محمد بين جنباته من جانب ظل ذلك المجتمع على حاله ولم يتغير إلا بنسبة ضئيلة⁽¹⁴⁾ يقول: "لم يتغير مجتمع يثرب، وظلت العلاقة القائمة هي العلاقة بين ذكر وأُنثى كما قد كانت في الجاهلية (فحولة وأنوثة)"⁽¹⁵⁾. ويقول: "إن سنن الاجتماع ترفض أن تتغير الأنساق الاجتماعية في مجتمع معين وخاصة تلك التي استمرت مئات السنين، في بضعة أعوام؛ قد تنجح دعوة في تهذيب عشرات من المحيطين بالداعية ولكن القاعدة الشعبية العريضة تظل محتفظة بأنساقها وعاداتها، ولا تتغير عندها إلا إذا تغيرت ظروفها المادية، مثل: طرق الإنتاج وأدواته ووسائله، بل إن بعض الملتفين حول صاحب الدعوة تغلب عليهم أعرافهم وطبائعهم المركوزة في أعماق نفوسهم والتي شبوا وشابوا عليها قبل اتصالحهم به أو اتصالحه بهم"⁽¹⁶⁾.

وبمثل ما قال خليل عبد الكريم تحدّث أمين الخولي ورفاقه⁽¹⁷⁾، فقد انطلق هؤلاء من ذات الفكرتين الرئيسيتين (حتمية البيئة والتطور)⁽¹⁸⁾. ويأتي، إن شاء الله، حديث مفصل عن هذه المدرسة في هذه الدراسة عن السيرة النبوية.

(14) ينظر: "مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين الحمدي والخليفي" لخليل عبد الكريم، (القاهرة، سينا للنشر، 1997)، ص 27.

(15) ينظر: "مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين الحمدي والخليفي" لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص 27.

(16) "مجتمع يثرب- العلاقة بين الرجل والمرأة في العهدين الحمدي والخليفي" لخليل عبد الكريم، مرجع سابق، ص 21.

(17) أمين أنور الخولي (1895م-1966م)، قروي من قرية شوشاي مركز أشمون بالمنوفية. حاد الطبع، ثوري المزاج، تخرج من "مدرسة القضاء الشرعي" التي وضع خطتها الشيخ محمد عبده واللورد كرومر وأسسها فعليًا سعد زغلول حين كان وزيرًا للمعارف. شارك في ثورة 1919م ضمن فاعليات القضاة؛ وابتعث إمامًا للصلاة في السفارة المصرية في إيطاليا ثم ألمانيا، وأتقن الإيطالية والألمانية وكان يتحدث بهما في بيته، وفتن بالتطور الإداري في الفاتيكان والتطور المعرفي في الغرب عمومًا، ونشط للعمل العام طيلة حياته، فشارك في جمعية إخوان الصفا إبان ثورة 1919م، وفي الثلاثينات من القرن المنصرم شارك القبطي سيء الذكر سلامة موسى (1887م-1958) في تأسيس جمعية المصري للمصري، ثم استقر في العمل المعرفي وأسس ما عرف بـ "جمعية الأمان"، وهي هذه التي طبقت فلسفة الهرمنيوطيقا، وأصدر عن هذه الجمعية مجلة على نفقته الخاصة طيلة حياته وتوقفت بعد رحيله. وأعني برفاقه أولئك الذين توافقوا معه على تطبيق فلسفة التأويل الغربية "الهرمنيوطيقا

والحاصل أن هؤلاء يبدؤون حديثهم من تقرير "تأثير البيئة" ككتاب ينطلقون منه، ثم يتحركون في مسارات مختلفة، أهمها: التفسير السياسي والاقتصادي للبعثة المحمدية (الوحي كتابًا وسنة)؛ والتفسير من خلال العبقرية والتخطيط الاستراتيجي (أو الصفات الشخصية)؛ أو القول بارتباط النص بالزمان والمكان بمعنى أن الوحي ثمرة حراك مجتمعي وبالتالي فإن على كل قوم أن يطوروا النص بما يتناسب مع زمانهم ومكانهم، وادعاء أن النبي ﷺ تعلم على يد أقرانه.

وإنَّ تَعَدُّدَ التفسيرات مع تضاربها أمانة على أنها حالة من تعمد تضليل الناس وصددهم عن سبيل الله، وليست حالة من كشف حقيقة ما؛ ويؤيد ذلك أنه قد تم الرد على ما يثار من شبهات حول الوحي مرارًا ومع ذلك تتكرر ذات الشبهات بعد الرد عليها، وفي هذا أمانة على أن المتكلم بالشبهة لا يريد جوابًا، وإنما يريد صرف الناس عن دين الله.

وقد خصصت لكل مسار فصلًا، ثم أردفت هذه الفصول بفصلٍ آخر فيه إطلالة عامة على حال الشبهات والمتكلمين بها والداعمين لهم أو المستفيدين من هذه الظاهرة.. الناشرين لها بين الناس إذ أن عامة هؤلاء كتاب لا يبحرون مكاتبتهم أو أنديتهم.

وتعمدت أن أقرب من قبل المتحدثين بالشبهات، وذلك لارتباط الفكر بالأشخاص في نظر عوام المثقفين، كما ديورانت، وجوزيف قزي، وزكريا بطرس، وخلييل عبد الكريم، وعباس العقاد، وعمرو خالد، ووضاح خنفر،. وحينًا اقتربت من قبل المفاهيم كما في "الهرمنيوطيقا"، و"إعادة تشكيل العقل العربي"، والله أسأل توفيقًا وقبولًا، وبركة، إنه كريم منان.

Hermeneutics" على القرآن الكريم، وأشهرهم: محمد أحمد خلف الله (1916-1991م)، وشكري عمر فيصل (سوري الجنسية 1918-1985م)، وعبد الفتاح شكري عياد (1921-1999م)، ومصطفى عبده ناصف (1921م-2008م)، وحسين محمد نصار (1925-2017م). ثم نصر حامد أبو زيد (1943م-2010م) وهو تلميذ غير مباشر للخوي.

(18) والنصوص التي تتحدث عن "حتمية البيئة" عند هؤلاء كثيرة ولكن المقام مقام بيان أفكار رئيسية وليس مقام استقصاء، ينظر: "مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن" لنصر حامد أبو زيد، (الرباط، المركز الثقافي العربي، 2014م)، ص

ثالثاً: سياق التأليف:

تظهر الموضحة في الفكر تماماً كما تظهر في الأشياء.. كالسيارات والثياب وقصّات الشعر. والسائد عالمياً هو الذي يصنع موضحة الفكر تماماً كما يصنع الموضحة في الثياب وغير الثياب. ولذا نجد أن الكتابات الحديثة في السيرة النبوية عكست الأفكار السائدة عالمياً، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه في مقدمة الكتاب، من أن كل ذي مذهب علماني حاول قراءة السيرة النبوية من خلال مقولات مذهبه الذي آمن به. وجملة: يمكننا تمييز هذه القراءات إلى مراحل حسب السائد في البيئة العالمية والإسلامية، مع الأخذ في الاعتبار عدم وجود فواصل زمنية حادة، بمعنى تداخل المراحل. والمقصود هو بيان التأثير بالسائد وأن هذه القراءات ما كانت إلا تسكين للشريعة في المذاهب العلمانية، أو نشر المذاهب العلمانية عن طريق ادعاء أنها موافقه للشريعة، وليس المقصود حصر ما كتب.

الكتابات القومية:

كانت بداية الفكر القومي العربي من نصارى الشام⁽¹⁹⁾ ثم انضم إليهم أبناء الطوائف (الأقليات) ثم المتأثرون بالغرب من المسلمين. حاول هذا السياق حال تصاعده يومها استخدام السيرة النبوية كأحد أدوات الدعم له في مرحلة من المراحل، وذلك من خلال محاولة دمج التراث الإسلامي كعنصر مكوّن لهوية قومية عربية، وكذلك إضفاء ملامح قومية عربية على صورة الرسول ﷺ، واستخدام السيرة لتجاوز

(19) نشأ الفكر القومي العربي من النصارى واستمر داخلهم وحدهم قرابة نصف قرن حتى جاءهم أهل الطوائف، وكانوا يصارعون مثلهم لإسقاط الخلافة، ثم لحق بهم السّماعون لهم من أهل السنة. ويمكن تتبع ذلك من خلال الفاعليات والأسماء التي ظهرت في سياق القومية العربية، وهم: بطرس البستاني، وسليم البستاني، وناصيف اليازجي، ومنيف خوري، ونجيب عازوري، ثم قسطنطين زريق، وميشيل عفلق،.. وأول من التحق بهم هم أبناء الأقليات مثل: زكي الأرسوزي، بعد نصف قرن، تقريباً، من حديثهم عن القومية العربية. والنصارى القوميون هم الذين أدخلوا التحديث كشرط للنهوض (كتابات قسطنطين زريق تحديداً). ويلاحظ أن خطاب القومية العربية التنظيري كان نخبوياً ولم يتحرك للجماهير إلى في مرحلة متأخرة، ويفعل الحركيين منهم. والحركيون ظهروا بأسباب خارجية (غربية)، فالتغيير كله، أو جلّه، خارجي: نصراني واحتلال غربي، والثاني فعل الأول في مجالات الحياة جميعها وليس فقط السياق القومي العربي.

الطائفية والمذهبية⁽²⁰⁾. فحاول هؤلاء التبشير بالقومية العربية وما تفرع عنها من اشتراكية من خلال سرد هؤلاء للسيرة النبوية أو تعليقهم عليها، ومن أمثلة ذلك، ما كتبه النصراني "لييب الرياشي" تحت عنوان: "نفسية الرسول العربي محمد بن عبد الله"⁽²¹⁾ وفي كتابه هذا اعتبر الرسول ﷺ منقذاً للعروبة من الفارسية والبيزنطية وباني الأمة العربية⁽²²⁾، وما كتبه "محمد عزة دَرُوزَة"⁽²³⁾ تحت عنوان "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية"⁽²⁴⁾، ومن أمثلة كتابات الاشتراكيين العرب والتي جاءت لاحقاً في سياق الاشتراكية الناصرية: "محمد رسول الحرية"⁽²⁵⁾، "اشتراكية محمد"⁽²⁶⁾، و"محمد الثائر الأعظم"⁽²⁷⁾.

²⁰ اتجهوا للسيرة ولم يتجهوا للفقهاء ربما لسهولة التعاطي مع السيرة بخلاف الفقه الذي يحتاج لدراسة وتأصيل واشتباك مع كم هائل من مبررات المذاهب الفقهية والعادات الاجتماعية، كما أن الفقه يكشف طبيعة المجتمع المسلم المستقل عن السلطة ونخبة المال (بالأوقاف وأصحاب المروءات وأهل الحل والعقد)، وهذا الأمر من شأنه أن يثير تساؤلات نقدية حول نموذج الدولة القومية المتمكن الآن.

⁽²¹⁾ النسخة التي معي طبعة دار ريجاني للطباعة والنشر - بيروت، ط4. د.ت.

⁽²²⁾ وهو نفس ما ذهب إليه ديورانت في سرده للسيرة النبوية، وقد ناقشته بالتفصيل في مكان آخر.

⁽²³⁾ محمد عزة بن عبد الهادي دَرُوزَة (1888-1984م)، مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي ولد في نابلس وتوفي في دمشق. إضافة إلى نضاله السياسي، كان أديباً ومؤرخاً وصحفيّاً ومترجماً ومفسراً للقرآن. هو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي إلى جانب ساطع الحصري وزكي الأرسوزي.

⁽²⁴⁾ ينظر: "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية" محمد عزة دروزه، (القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1367هـ/1948). وفي هذا الكتاب جعل الشروط الأساسية لإقامة كيان عروبي تتمثل في: نظام سياسي

اقتصادي موحد، بجانب اللغة العربية، والتراث الإسلامي وسيرة الرسول ﷺ

⁽²⁵⁾ ينظر: "محمد رسول الحرية"، لعبد الرحمن الشرقاوي، (القاهرة، دار الشروق، 1410هـ/1990). وفيه أهمل الرسالة وتحدث عن النبي، صلى الله عليه وسلم، كشخص.. إنسان. ومثله ما كتبه توفيق الحكيم تحت عنوان "محمد الرسول البشر" وهي عمل مسرحي (في هيئة حوار) من خمسة فصول. يقول: إبراز البعد الإنساني في شخص الرسول ﷺ. ولا أدري كيف والله يقول: "وما محمد إلا رسول".

⁽²⁶⁾ ينظر: "اشتراكية محمد" لمحمود شلبي، (بيروت، دار الجيل، 1974م). كتب في، 1962 بإيجاء من جمال عبد

الناصر، ونشرت في 1968، ثم أعيد نشرها بعد ذلك.

وعملياً لم تتحول أفكار القوميين العرب إلى واقع مستقر، فقط عملت في سياق الحشد ضد نموذج الخلافة، وعملت في سياق فصل العالم العربي عن العالم الإسلامي، فلم تشيد قومية عربية بديلاً للخلافة العثمانية(28). تحول العرب، والعالم الإسلامي كله، من نموذج الخلافة إلى نموذج الدولة القومية، هذا في مستوى السلطة، وفي المستوى الثقافي تحول العالم الإسلامي من السياق الإسلامي المحافظ للسياق الليبرالي فكان عصر ما بعد "الثورة العربية" هو العصر الليبرالي لا القومي العربي الذي يعظم النبي، صلى الله عليه وسلم، والعربية، كما ادعوا في كتاباتهم. وهذه منطقة تفكير ينبغي أن تأخذ حقيقتها من المهتمين. ينبغي أن نطرح سؤالاً عن السياقات الحقيقية، وعن الفاعلين الحقيقيين، وعن هامشية دور الأفكار الثورية تلك التي تطفوا على السطح ثم تختفي مخلفة وراءها غير ما كانت تطلبه(29). أو بالأحرى دراسة كيفية استغلال المتحمس من قبل من يملك رؤية أوسع وأدوات أقوى وأكثر، وهو هنا المحتل الغربي الذي استغل الطوائف، والثورات وما تولد عنها من مدعويين في إنهاء الخلافة العثمانية ثم تحويل العالم الإسلامي لمذهبه هو (الليبرالي) ثم إلى نموذج في الحكم (الدولة القومية).

السياق الليبرالي:

وهنا لا نؤرخ لمرحلة زمنية، وإنما نشير إلى موضة فكرية (مناهج وضعية) حاولت تسكين السيرة النبوية في مذاهبها العلمانية، فكما القوميون العرب خرج من السياق الليبرالي من حاول قراءة السيرة النبوية على أنها محاولة فردية من شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم. فكانت موضة ليبرالية حاولت

((27)) ينظر: "محمد، صلى الله عليه وسلم، الناشر الأعظم" لفتحى رضوان، (القاهرة، دار الهلال، 1994م). وفتحى رضوان كان وزيراً للإرشاد القومي (الإعلام)، في بدايات عهد ما بعد ثورة 1952، وعضواً مؤسساً في حزب مصر الفتاة. وأنشأ مجلس حقوق الإنسان المصري، وله حضور في الوسط الثقافي المصري.

(28) حتى الكيانات القومية الصغيرة التي حاولت أن تتشكل في بعض جنبات العالم الإسلامي لم تستطع أن تتواجد عملياً، كانت بدايتها من "دولة قومية" كالمغرب العربي حيث أن المغرب العربي كان يتهدأ لأن "يستقل" كتلة واحدة، وكان لهم مجلساً ثورياً موحداً في مصر، ثم استقلوا "دولاً" وتناحروا فيما بينهم صبيحة استقلالهم. وكذلك المسلمين في الهند، حيث انشق البنجال عن باكستان.

(29) ينظر للكاتب "هل نفهم ما يحدث" موجود مقال ومحاضرة على اليوتيوب، وينظر: "ثورة تاني!!!"

قراءة السيرة من خلال مقولة العظمة الفردية، فكتب هيكل عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وكبار الصحابة، وكتب العقاد عبقرياته (30) على ذات المنوال. وما كتبه هيكل والعقاد هو أشهر ما نشر في هذا السياق وظهرت كتابات أخرى في جنبات الساحة الثقافية، مثل: "محمد- المثل الكامل" (31)، صلى الله وسلم على نبينا محمد. وبهم هنا رصد فكرتين رئيسيتين:

الأولى: أن السيرة النبوية قرئت بمقولات (مفاهيم) المستشرقين، مثل "العبقرية"، أو "العظمة الفردية" كما تم قرئت من قبل بمقولة "القومية العربية"

والثانية: أن أطروحات المستشرقين ظهرت على لسان منتسبين للإسلام، والمثال المشهور هنا هو "على هامش السيرة النبوية لطف حسين، ولكن المثال الأهم، هو ما كتبه الشاعر العراقي "معروف الرصافي" (1875م-1945م)، وأريد أن أقف مع ما كتبه الرصافي قليلاً لشيء أبينه بعد عرض ما انطوى عليه كتاب الرصافي:

معروف الرصافي شاعر وسياسي، شغل طيلة حياته بالفعل السياسي والكتابة الشعرية، ومع ذلك قدّم كتاباً كبيراً بعنوان "الشخصية المحمدية"⁽³²⁾، جمع فيه الآراء المتطرفة للمستشرقين ودعاة النصرانية عن البعثة المحمدية، وإليك بعض ما توافق فيه الرصافي مع المستشرقين:

(30) تنطوي العبقرية على فكرة رئيسية، وهي أن السيرة، أو التاريخ عموماً، من صنع أفراد معدودين "العباقرة". وهؤلاء "العباقرة" صنعة العوامل الوراثية والبيئية التي نشأ فيها، فكل منهم ورث أباه وتأثر ببيئته!! ومسمى عبقرى أطلق على غلاف ستة كتب فقط من كتب العقاد (120 كتاب تقريباً)، "عبقرية محمد"، و "عبقرية عمر"، و "عبقرية الصديق"، و "عبقرية علي"، وبعض الكتب حمل مسمى العبقرية بداية ثم تغير العنوان في الطبقات اللاحقة، مثل كتابه عن المسيح عليه السلام، فقد صدرت الطبعة الأولى بعنوان "عبقرية المسيح" والثانية بعنوان "حياة المسيح". وحدث العكس مع كتابه عن الشاعر الألماني "جوته" فقد صدر بداية تحت مسمى "تذكار جوته" وتم تعديله بعد ذلك إلى "عبقرية جوته"، وقد كان العقاد يسمح لبعض الناشرين بإعمال أيديهم في عناوين الكتب والمقالات، فكان لهم ظهور حول النص.. في التسويق والعنونة، وفي التأطير الفكري، وهذا شديد الوضوح في تقديمهم لعددٍ من كتبه.

(31) محمد جاد عبد المولى

(32) كتب في سنة 1933م، وطبع في سنة 2002م على حساب عراقي مقيم بأوروبا.

ادعى أن "الغاية التي ينزع إليها محمد ﷺ ليست دينية محضة بل هو يريد أن يحدث نهضة كبرى أو موجة عربية كبرى تكون دينية اجتماعية سياسية يقوم بها العرب في بدء الأمر على أن تكون لهم السيادة فيها على غيرهم من الناس" (33)، وزعم أن هذا الإنجاز جاء من صفات في شخص رسول الله ﷺ منها: العقل (34) والحزم والعزم (35)، والعلم الواسع بما في زمانه (أنكر أميته ﷺ (36)). وزعم أنه ﷺ تعلم من ورقة بن نوفل. وقد أشبعت هذا الكلام ردًا في مناقشتي لديورانت وعباس العقاد وخليل عبد الكريم وسيد القمني غيرهم، فقط أشير إلى أن أفكار المستشرقين تحركت في مساحات واسعة داخل الساحة المسلمة وحولها.

وادعى أن النبي ﷺ تمتع بخيال واسع، وزعم أن المعجزات جاءت من هذا الخيال الواسع (37). وادعى أن الرسول ﷺ اتخذ من البعد الروحاني (الجنة والنار) والبعد المادي (الغنائم، والتبشير بالفتوحات) وسيلة لتشجيع أصحابه؛ وزعم أن النبي ﷺ كان زعيمًا سياسيًا محنكًا، واستدل بكلمة قالها للملأ من قريش (كلمة تدين لكم بها العرب والعجم) وكأن النبي ﷺ أغراهم بالسيادة على العرب إن هم قالوا هذه الكلمة وكان الرسول ﷺ كان يملك الزعامة على العرب وسيعطيهم إياها إن هم أطاعوه. وعمي الرصافي عن أشهر ما واجهوا به النبي ﷺ وهو الخوف من أن تأكلهم العرب إن هم اتبعوه ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُكَ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (القصص: من الآية 57)، وعمي عن حاله وحال أصحابه ﷺ وهم قلة مستضعفه يخافون أن يتخطفهم الناس ﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ (الأنفال: 26)، فلم يكن حاله ﷺ حال ممكن يبذل الملك لمن اتبعه، بل حال رجل في عدد قليل من أصحابه وقد اجتمع عليه من

(33) النص من ص 27، والسياق من ص 20-34:

(34) ص 76 وما بعدها: محمد، صلى الله عليه وسلم، ذو عقلية ممتازة... = متميز تألم لحال المتخلفين من حوله!!
وكلامه هذا يتطابق بشكل كبير مع كلام "جوزيف قزي" في كتاب "نبي الرحمة"، ومع ديورانت في تاريخه.

(35) ص 85.

(36) ص 166

(37) ص 95. أنكر المعجزات وكذلك فعل الذين ظنوا أن الرسول ﷺ جاء من تلقاء نفسه.

بأقطارها؛ وعمي (الرصافي) عن أن قريش.. في ذات المجلس، عرضت علي النبي ﷺ السيادة والمال وما شاء على أن يترك الدعوة لتوحيد الله ولم يقبل. وقال ﷺ كلمته التي ملأت الزمان والمكان: "وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ" (38)، فظاهر الكلام وسياقه أن الدين ممكن بأمر الله وأن من يؤمن بالله وما أنزل على رسوله ستدين له العجم والعرب إن آجلاً أو عاجلاً، وهو ما حدث بالفعل وبعد سنوات قليلة وشهده نفر من الحضور، وصدق الله ﷻ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَيَمَلُؤُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ (النور: 55). فقد كان رسول الله ﷺ يتحدث عن نصر الله للمؤمنين وليس لشخصه هو ولا لأحد بعينه ممن يسمع، فمن المحكمات البيئات المقررة، والمتكررة، في القرآن الكريم أن شخص رسول الله ﷺ لم يوعد بالنصر في حياته هو، وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ (الرعد: 40)، وتكرر هذا المعنى في أكثر من موضع من كتاب الله³⁹. وهذا ما كانت قريش تفهمه، وما كان يفهمه الملاء في كل زمان ومكان، كانوا يفهمون أن الدخول في الدين يعني التخلي عن الكبرياء في الأرض، وأن يكون التمكين للدين نفسه في هيئة عباد الله يأتمرون بأمر الله وينتهون بنهيهِ وبالتالي تقام بهم الحياة على منهج الله في الحقوق والواجبات بين الأفراد والمجتمعات. وكانوا يفهمون أن الدخول في طاعة الله يعني نزع التكبر والاستعلاء والتأله الذي يمارسه الملاء على العوام ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدْوَانٌ ﴿٤٧﴾ (المؤمنون: 47)؛ ويعني نزع ما في أيديهم من سلطان، ويعني تسويتهم بمن يتسلطون عليهم ويحتقرونهم: ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴿٤١﴾ (البقرة: 41-42).

(38) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي، 1375هـ/1955م)، ج 1، ص 266.

³⁹ ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ (الرعد: 40)، وقول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ (الرعد: 40)، وقول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ (الرعد: 40)، وقول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ (الرعد: 40)، وقول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ (الرعد: 40).

من الآية 13)، ﴿ قَالُوا أَنْوْمُنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَلَذَّةُونَ ﴾ (الشعراء: 111) ﴿ وَمَا تَرْكُكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ﴾ (هود: 27).

وفي تفاصيل البعثة المحمدية لم تكن الحروب مصدرًا للوفرة المالية، بمعنى أنها لم تكن حالة من نهب أموال الناس وتوزيعها على المؤمنين بالله المتبعين لرسوله ﷺ، وإنما غلب العفو مع المخالفين، سواءً من المنافقين الخائنين أم من الكافرين المقاتلين، حتى عوتب ﷺ في العفو، فكانت حالة من الرحمة ودعوة الناس لعبادة الله العلي الكبير، وقد بينت عددًا من الأمثلة حال مناقشة "ديورانت"⁴⁰، والزكاة توزع في مكانها ولا يذهب للمركز إلى الفائض، فكانت البعثة تمكين للناس مما قدره الله في الأرض من إمكانات. كان البعثة تحرير للإنسان من استعباد بعض البشر له وفي ذات الوقت تمكينه مما خلق الله في الأرض من إمكانات⁴¹، ولم تكن حالة من نزع الاستبداد على العباد وعلى الأموال من مجموعة ووضعها في يد مجموعة أخرى كما يحاول أن يصور هؤلاء.

ويصح هنا أن نستدل بحال النموذج التطبيقي للبعثة (الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم) ومن تبعهم بإحسان) فقد عاشوا كغيرهم ممن دخلوا الإسلام.

وادعى أن النبي ﷺ أباح الكذب تحقيقًا للمصلحة (42) يحاول أن يلبس البعثة ثوب السياسة المعاصرة التي تقوم على الكذب والخداع. وإن تحريم الكذب من المحكمات في الشريعة، يقول الله، سبحانه وتعالى وعز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا آتَتْ اللَّهُ وَأَوْلَاتِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (النحل: 105)، وفي الحديث: "إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا". وفي الحديث: "عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ - يَعْنِي: الرَّجُلَ - لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا" (2)، وفي الحديث:

⁴⁰ مثل العفو عن قريش بعد الهجرة، والعفو عن قبيلة طيء، وثمامة بن أثال، وطبيعة التوصية للجيش من الرحمة بالصغار والكبار وتجنب النساء والزروع؛ والعفو عن عبد الله بن أبي بن سلول والاستغفار له.

⁴¹ والتفاصيل عند الدكتور جميل أكبر في أطروحته "قص الحق".

"أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: لا". وهذا (الرصافي) يستحضر التورية في حالات استثنائية في موطن الحرب.. حال الحرب أو للصلح بين الناس أو لتطيب العشرة مع الزوجة بثناء جميل مما يعجب النساء، ثم يعمم ويقول أباح الكذب سياسة على الناس!!

وإن السياق العام في مكة والمدينة وحال الهجرة يبين بوضوح أن رسول الله ﷺ اختار الصدق بالأفعال والأقوال في مواطنه كلها، قبل البعثة وبعدها، فقد لقبوه بالأمين، وحين اعتلى الصفا يحدثهم بأنه رسول الله إليهم قالوا له: "ما جربنا عليك كذبًا قط" (43). وقد نعت قريش بالكفر ورفض أن يداهنهم بأقل شيء: ﴿ وَدُّوْا لَوْ تَدَّهِنُ فَيَدَّهِنُونَ ۖ ﴾ (الفلم: 9)، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۗ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۗ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۗ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۗ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۗ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۗ ﴾ (سورة الكافرون). وإن حال النبي ﷺ هو الصدق قبل البعثة وبعدها حتى قال له قومه يوم أعلنهم بيعته ﷺ "ما جربنا عليك كذبًا قط" ﷺ.

وزعم الرصافي أن الرواية ظلت هي وسيلة النقل للقرآن الكريم والسنة النبوية إلى القرن الثاني، وهذا كذب بين، فقد كان الصحابة يكتبون القرآن الكريم بين يدي النبي ﷺ ويعرف القاصي والداني "كتبة الوحي" كمعاوية بن أبي سفيان وسعد بن أبي السرح وعلي بن أبي طالب وغيرهم، فقد تلقينا نصًا مكتوبًا ومنطوقًا.

والمقصود من الاسترسال في هذا المثال مع أنه غير مشهور هو بيان أن أفكار المستشرقين كانت معروضة على من يقتبسها دون تثريب منهم عليه، فاقتبس كل واحد حسب جهله بالدين ومكر الكافرين، أو حسب جرأته على الجهر بالباطل. فمنهم من أخذ فكرة أو فكرتين وتحرك بهما على أنهما من بنات أفكاره ولم ينكشف أمره إلا بعد انتشرت ثقافة الغرب وعزى الله باطله بمن استخدمهم في نصرته دينه ككثير من أفكار طه حسين والعبقریات، ومنهم من نقل نقلًا مباشرًا

(43) ينظر: "صحيح البخاري"، (دمشق، دار ابن كثير، 1414هـ/1993م)، كتاب التفسير، باب "تفسير سورة تبت يدا

عن الكافرين كهذا المأفون عدو نفسه؛ ومنهم من أعاد صياغة حديثهم وكأنه يتحدث من تلقاء نفسه، كخليل عبد الكريم وسيد القمني (44). فقد كانت المرحلة نقل عن الكافر أو نشر لأفكاره، أو تسكين للسيرة والشريعة في المذاهب العلمانية الحديثة التي اجتاحت العالم الإسلامي.

ومن الأمثلة التي ينبغي أن نقف عندها لبيان التبعية الفكرية للمستشرقين.. لبيان أن الأدوات الغربية استخدمت لفهم البعثة المحمدية.. لبيان أن أصحاب المذاهب العلمانية قرؤوا السيرة النبوية، والشريعة عمومًا، من خلال مذاهبهم العلمانية، ما قام به عبد المجيد الشرفي وطلبته من دراسة حول القرآن الكريم. وأنظرُ إلى تجربة الشرفي من زاوية محددة وهي أن هؤلاء استخدموا أدوات المستشرقين المنهجية (النقد النصي تحديداً) وحاولوا بكل تعسف تطبيقها على القرآن الكريم، رغم بعده التام (كموضوع) عن الصلاحية لهذه الأداة البحثية. وذلك أنه إن كان النقد النصي صلح للكتاب "المقدس" كونه لم يظهر إلا مخطوطات، فإن القرآن الكريم نقل إلينا بالضبط الشفهي بجوار الضبط الكتابي وذلك منذ نزوله على رسول الله ﷺ. فالنبي ﷺ تلقى القرآن من الله سبحانه وعز وجل عن طريق الروح الأمين جبريل، عليه السلام، وضبط جبريل للرسول ﷺ النص ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (القيامة: 17). فقد كان يراجع كل عام مرةً وراجعه في العام الأخير مرتين والحديث في صحيح البخاري (وكان جبريلُ يلقأه في كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ)، والصحابة، رضي الله عنهم، تلقوا القرآن من النبي ﷺ، مشافهةً وكتبوه بين يديه، ورتبه لهم، فكان كل لفظٍ مأخوذ عنه ﷺ وكل قراءة أخذت عنه ﷺ، وكان ترتيب السور وترتيب ما فيها من آيات منه ﷺ، وكان الجمع من أبي بكر جمعًا للمحفوظ والمكتوب والمرتب في آياته وسوره بين دفتين (مصحف)، ثم جاء عثمان فضبط اللفظ مع النطق ببعض الإشارات (كالألف الصغيرة بعد الميم في ﴿ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴾). وما لا يحتمله الرسم

(44) خليل عبد الكريم يكاد يتطابق مع كتابات جوزيف قزي، وكذلك سيد القمني وناقشتها كل في موضعه.

فَرَّقَهُ فِي النُّسخِ الَّتِي وُزِّعَتْ عَلَى الْأَمْصَارِ. فَكَانَ مَجْمُوعَ نَسَخِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رضي الله عنه يَحْتَوِي عَلَى كُلِّ الْقُرْآنَاتِ. وَبِكُلِّ قِرَاءَةٍ قَرَأَ قَوْمٌ. بِمَعْنَى أَنَّ الْقِرَاءَاتِ مَوْجُودَةٌ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ نَقَلْنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلَيْسَتْ مِنْ صَنْعِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا يَزْعَمُ هَؤُلَاءِ. أَمَّا "عَبْدُ الْمَجِيدِ الشَّرِيفِي" وَتَلَامِيذُهُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ. فَلِكثْرَةِ مَخَالَطَتِهِمُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَالثَّقَافَةَ الْغَرِيبَةَ دَخَلُوا فِي حَالَةٍ مَتَوَهِّمَةٍ. أَوْ بِالْأُخْرَى أَعْرَضُوا عَمَّا هُوَ مُثَبَّتٌ فِي كُلِّ بَيْتٍ مُسْلِمٍ وَفِي كُلِّ سَاعَةٍ مَرَّتْ عَلَى الْأُمَّةِ، مِنْ أَنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَحْفُوظٌ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ سَبْحَانَهُ، نَطْقًا وَكِتَابَةً، وَأَنَّ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الحجر: 9)، يَقْرَأُهُ الضَّابِطُ مِنْهَا كَمَا قَرَأَهُ جَبْرِيلُ وَكَمَا قَرَأَهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. فَرددوا أكاذيب المستشرقين (ادعاء أن القراءات حالة من التضارب والاختلاف، وأنها ظهرت متأخرة بفعل الأعاجم مع أنها بلسان عربي مبين، وكذلك ردّدوا الزعم بأن القرآن الكريم كتب في أزمنة متلاحقة!!). وفتشوا عن أقدم مخطوطة بيد المستشرقين، وذلك على اعتبار أن البحث "العلمي" لا يعمل إلا على مخطوطات (وثائق)، فوجدوها في اليمن مهترئة ناقصة رقعها مستشرق أعجمي لا يحسن العربية، فأخذوا نسخته الناقصة والمرقعة هذه وراحوا يدرسون القرآن منها!! (45) ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَلُّهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ سورة التوبة: آية ٣٠.

(45) ينظر: "المصحف وقراءاته" لعبد المجيد الشريفي، محرراً، (الرباط، مؤمنون بلا حدود، 2016م)، ص 15-23. وللوقوف على تعمدهم الخطأ في كثير من معالجتهم من حيث المنهجية والتطبيق ينظر: "نقد كتاب المصحف وقراءته" لمحمد أمين بن مصطفى العوني، (تونس، دار المازري، 2021). وللوقوف على فساد منهجية المستشرقين وتعمدهم الخطأ حال دراسة القرآن الكريم ينظر: "المستشرقون والقرآن الكريم في المراجع العربية"، لعلي بن إبراهيم النملة، (بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، 2010م). وللوقوف على نماذج مشابهة فيما يتعلق بالمخطوطات ينظر: "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1996م)، ص 290، 291. وينظر: "الفكر الأصولي واستحالة التأصيل"، لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، (بيروت، دار الساقبي، 1999م)، ص 45. ومن أفضل ما كتب عن جمع القرآن والقراءات العشر والأحرف السبعة ينظر: "تسهيل الشاطبية: شرح الأصول"، لعزة عبد الرحيم سليمان (القاهرة، مفكرون للنشر والتوزيع، 1441هـ/ 2020م)، ص 9-33.

المتوافقون مع التنصير كلية:

في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين الميلادي بدأت موجة جديدة شديدة التطرف الفكري، والبذاءة اللفظية، وشديدة الانحطاط في التعامل، ومن أشهر هؤلاء الكذاب اللئيم زكريا بطرس، وجوزيف قزّي (أبو موسى الحريري)، وخلييل عبد الكريم، وسيد القمني. والسياق الذي خرج فيه هؤلاء هو سياق التنصير المدعوم من الإلحاد العالمي، ولم يأت هؤلاء مجدد فقط أعادوا ما قيل من قبل، وأكدوا الحقيقة التي نحاول إبرازها وهي تبعية المثقف المعاصر للفكر وإن شاء الله نناقش المفاهيم من خلال من اشتهر منهم.

وماذا أفعل هنا في هذا الكتاب؟

أحاول، بحول الله وقوته، كشف هذا السياق من التبعية للآخر، أو بالأحرى من تفعيل الآخر للتابعين له، وإظهار مقولاتهم الرئيسية والرد عليها، أعرض المقولة وأشهر المتحدثين بها لأجمع بين: كشف السياق وكشف المقولات وكشف المتحدثين بالباطل. أرجو أن يكتبني الله ممن جاهد المعتدين من الكافرين والسماعين لهم والمنافقين بالقرآن الكريم ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: من الآية 52). والله أسأل عوناً وقبولاً، وبركة، إنه كريم منان.

محمد جلال القصاص